التاريخ: 23-10-1996 رقم العدد: 19576 الصفحة: 1 العمود: 2

العنوان: أمام " سويس " مقلوبة

الكاتب: سلامة غسان

عشية جولة جاك شيراك على عواصم منطقتنا، نشرت مجلات فرنسية عديدة نص وثيقة تاريخية، تعود بنا اربعين عاما الى الوراء لتثبت مدى تورط رئيس الحكومة الفرنسية عام 1956، غي موليّه، في مؤامرة سرية مع الموساد الاسرائيلي لزعزعة الحكم في مصر، ولطرد جمال عبد الناصر من السلطة. ويصعب الاقتناع بأن تلك الوثيقة اكتشفت بالصدفة، او ان موعد نشرها اليوم بريء تماما، وكأن هناك من يريد ان يذكّر العرب المرحبين بشيراك بالصفحات القديمة غير المضيئة من علاقات باريس بهم. بل ان نشر تلك الوثيقة يسعى لاثبات نظرية سائدة منذ زمن مفادها ان الدور الفرنسي، بل الاوروبي، في الشرق الاوسط سقط ابان حرب السويس، بصورة تمنع من ان تقوم له قائمة بعدها. وتضيف النظرية عينها ان الشرق الاوسط، منذ فشل "العدوان الثلاثي" تحول ساحة تجاذب بين جباري الحرب الباردة: واشنطن من جانب وموسكو من آخر، حتى جاء اليوم الذي انهار فيه الاتحاد السوفياتي فخلت الساحة تماما للولايات المتحدة، زعيمة الحرب في الخليج، وزعيمة التسوية في المشرق. ويمضي اصحاب هذه النظرية، من عرب واسرائيليين واميركان، ناهيك ببعض الاوروبيين، مؤكدين ان باريس حاولت التعويض عن اقصائها عن المنطقة، بفتح باب التفاهم مع التيارات القومية في بلاد العرب، فتقربت من عبد الناصر وتعاملت بانفتاح ملحوظ مع البعث العراقي، وتصالحت مع جبهة التحرير الوطنية في الجزائر. لكن هذا المنحى الديغولي المنفتح على القومية العربية، العصرية الميول، العلمانية التوجه، المتمسكة بمبدأ عدم الانحياز، اصيب هو ايضا بنكسة جديدة في الثمانينات عندما تراجعت التيارات القومية الحديثة في دنيا العرب لتحل مكانها قوى اصولية متدينة مناهضة لافكار الثورة الفرنسية، وللعلمانية، وللثقافة الاوروبية اجمالا .وبينما ارتبكت اوروبا في مقاربتها لهذه الظاهرة المستجدة، عرفت واشنطن كيف تتعامل معها، بل كيف تستغلها لمصلحتها كما حصل في افغانستان وفي غيرها من بقاع العالم الاسلامي. وتضيف النظرية السائدة هذه انه كان في وسع اسرائيل انقاذ ما تبقى من نفوذ اوروبي في المنطقة، ولا سيما ان مؤسسي الدولة العبرية هاجروا، في اكثريتهم الساحقة، من اوروبا التي كانوا قد تشبعوا من ثقافتها، وتماهوا معها، وشاركوا في احداثها الكبرى. لكن اسرائيل، غداة السويس، تبنت هي الاخرى منحى سياسيا ثقافيا افضى بها للاعتماد شبه المطلق على حلفها المتين مع الولايات المتحدة، فتقلصت تدريجا اعداد المهاجرين اليهود من اوروبا، ليحل مكانهم خليط اثني متنوع، كما تقلص اعتماد اسرائيل على اوروبا بينما توالى الرؤساء الاميركان وزايدوا في دعمهم لاسرائيل، بدءا بيكينيدي مرورا بجونسون ونيكسون وانتهاء بكلينتون، بحيث تمكن كل واحد منهم، خلال ولايته، من الفوز باللقب المحبوب، لقب "اكثر الرؤساء الاميركان صداقة لاسرائيل"، وهو وسام تنافس عليه المرشحون الاميركان وما زالوا. من هنا ذلك التشكيك شبه الدائم بقدرة فرنسا (واوروبا عموما) على لعب دور سياسي فاعل في الشرق الاوسط. فعندما زار الرئيس السابق جيسكار ديستان مصر، غنى له الشيخ امام عيسى متهكماً: "فاليري جيسكار ديستان / والست بتاعو كمان / حيجيب الديب من ديلو / ويشبّع كل جوعان". وعندما زار شيراك لبنان في الربيع الماضي، تساءل سياسي لبناني مرموق: "ما الذي تقدر عليه باريس فعلا؟ "وعندما سعت فرنسا لوقف عملية "عناقيد الغضب"، نصح لها شمعون بيريس بالعودة من حيث أتت، بينما عبّر اكثر من مسؤول لبناني وعربي عن تأففه من "كثرة الغلبة" الفرنسية. وكان مؤتمر مدريد قد صمم بطريقة أعطيت معها باريس كرسيا صغيرا جانبيا في "قصر الشرق"، بينما احتلت واشنطن الصدارة وفازت مصر بوفد كامل من 12 عضوا. وعندما كان الفرنسيون يتأففون من هذا التهميش المنهجي، كان الاميركان، واسرائيل معهم، يدعونهم للاكتفاء بدور الداعم المالي لعملية التسوية، مثلهم مثل اليابان او اسوج. وتعددت التبريرات لهذا الاقصاء كالقول ان "فرنسا منحازة للعرب اكثر من اللزوم"، او ان "طبخة التسوية المعقدة لا تتحمل أكثر من طاه واحد". وغالبا ما اختبأت واشنطن وراء اسرائيل الرافضة لدور اوروبي، بينما تواطأ اطراف عرب عديدون لتكريس الولايات المتحدة مهندسا وحيدا متفردا لعملية التسوية .

تواجه باريس، اذن، شرائح متراكمة كثيفة من التشكيك بقدراتها على الاشتراك في رعاية عملية التسوية، وهو هدف وضعه شيراك نصب عينيه منذ انتخابه رئيسا، وعبّر عنه بلا حرج في دمشق ثم في حيفا. يقول الرئيس الفرنسي انه لن يدخل الى المنطقة "بالكسر والخلع"، لكنه يؤكد تصميمه على دخولها، مستندا الى رصيده الديغولي، والى ترحيب معظم القادة العرب (المعلن على الاقل) والى سابقة مجموعة مراقبة وقف اطلاق النار في جنوب لبنان حيث ادى اصرار باريس على الاشتراك في البحث عن حل الى رضوخ اسرائيل واميركا لدخولها مجموعة المراقبة تلك. ويقول الرئيس الفرنسي ان اسباب اصراره على دور اوروبي فاعل في التسوية "وجيهة للغاية بل شرعية". كيف لا ونصف تجارة اسرائيل الخارجية هي مع دول الاتحاد الاوروبي؟ كيف لا وثلاثة ارباع المساعدات التي حصلت عليها السلطة الفلسطينية جاءت من الاتحاد الاوروبي؟ كيف لا واوروبا لها مع المنطقة ما ليس لواشنطن ولا لبكين ولا لموسكو من جوار جغرافي، واعتماد قوي على النفط، وتداخل سكاني، وكثافة في التواصل التاريخي، واشتراك في مشاطأة المتوسط؟ ويضيف الفرنسيون ان اوروبا تضررت اكثر من الولايات المتحدة بكثير من نتائج استمرار النزاع على فلسطين، ان بسبب العمليات الارهابية المرتبطة بذاك النزاع، او من خلال قوانين المقاطعة التجارية لاسرائيل او بسبب استعمال العرب للنفط سلاحا في النزاع. هذي فعلا اسباب وجيهة، ولكنها لا تقنع ابناء المنطقة بقدر ما هي حجج يلجأ اليها الرئيس الفرنسي لاقناع مواطنيه وشركائه في اوروبا وبالتالي واشنطن، باحقية اوروبا بدور سياسي فاعل في الشرق الاوسط. ذلك ان التحدي الاول الذي يواجهه شيراك هو داخل المجموعة الاوروبية نفسها حيث تتنوع المواقف من المبادرة الفرنسية بين عواصم (قليلة) مؤيدة تماما، وعواصم اخرى راضخة مستكينة للتفرد الاميركي، وفئة ثالثة من العواصم (قد تكون الاكثر عددا)، تراقب المبادرة الفرنسية عن كثب، فان نجحت سارعت تلك العواصم الى المشاركة في فوائدها، وان فشلت سارعت العواصم نفسها الى القاء اللوم على باريس، وعلى "هاجسها المرضي" بدور سياسي مستقل. ويتذكر شيراك بالتأكيد كيف قوبلت مبادرته في الربيع الماضي بالتهكم في اكثر من عاصمة اوروبية، حتى اذا فازت باريس برئاسة مناوبة للجنة جنوب لبنان، توقف التهكم. ويتذكر شيراك ايضا تحفظ شركائه الاوروبيين في قمة دبلن الاخيرة عن ارسال موفد اوروبي خاص الى المنطقة، يكون رديفا لدنيس روس، او حتى بديلا منه. لكن هذا التحفظ زاد من عزيمة شيراك بدلا من ان يفتتها، ذلك انه يعلم ان فرنسا امست عاجزة عن فرض دورها في المنطقة بدون موقف اوروبي داعم. فشيراك ديغولي في طموحاته وفي اعتماده على ارادته حتى لو غرد لفترة خارج اي سرب، ولكنه ايضا ميتراني في تحديده لدور باريس كقاطرة تدفع اوروبا نحو لعب دور سياسي فاعل على الصعيد الدولي. وشيراك مهتم خصوصا باقناع المانيا الموحدة بدعم مبادراته الخارجية، ليقينه بان تفاهما المانياً - فرنسياً هو الشرط، بل الاساس الذي لا بديل منه، لتحويل الاتحاد الاوروبي الى لاعب دولي منافس للولايات المتحدة .

هل يعنينا، نحن اللبنانيين وعموم العرب، ذاك التنافس بشيء؟ فرب قائل: "فخار يكسر فخارا، فلندع دول العالم الصناعي تتزاحم على اسواقنا ومشاريعنا

وثرواتنا ما شاءت، بل ان بين العرب من يضيف ان الغرب واحد في مواقفه، على تعدد عواصمه وزعمائه. وبين العرب (بل بين اللبنانيين) من يذهب ابعد من ذلك ليذكرنا بان اسرائيل ما اشتد ساعدها الا بالتصاقها بالاميركان. فلم لا نحذو حذوها وفوائد الاعتماد على الدولة الاكبر والاقوى والاغنى في العالم خير طريق للفوز بالمغانم والمكاسب؟ فمن راهن على واشنطن ربح، ومن راهنت واشنطن عليه فاز بدعم الغرب باسره. وهناك بين الزعماء العرب من يعتبر اوروبا وفرنسا تحديدا، نوعا من "الرابوق" الموقت، تستضيفه وتسايره وتسامره في انتظار التفاتة الحبيب (الاميركي) لك، لكي تهرع نحوه راكضا، مخلفا اوروبا في حيرة وخيبة. يقيني ان زمن هذه الحسابات الطفولية قد ولى، لا بسبب نشاط فرنسا، ولا لأن مسيرة التوحد الاوروبي مستمرة رغم العثرات والتحفظات، ولا حتى بسبب الانهاك الواضح الذي اصاب ادارة واشنطن لعملية التسوية في الشرق الاوسط. ولى زمن هذه الحسابات لان التناقض العميق في رعاية واشنطن لعملية التسوية قد صار اليوم واضحا للعيان. فواشنطن تسعى لان تكون، في الان ذاته، وسيطا نزيها بين العرب واسرائيل، بينما هي في حلف استراتيجي شامل مع احد اطراف النزاع، مع اسرائيل بالذات، لقد سكت الاطراف العرب عن هذا التناقض البنيوي منذ مؤتمر مدريد لانهم يعرفون ان ميزان القوى العسكري في المنطقة لغير مصلحتهم، وان ميزان القوى العالمي قد تبدل سلبيا مع انهيار الاتحاد السوفياتي واكتفاء موسكو، منذ مدريد، بدور شكلي تماما كراعية مشاركة لعملية التسوية. وبقي التغاضي العربي عن ذاك التناقض قائما ما دام يصدر عن اسرائيل من المؤشرات ما يكفي لاقناع الاطراف العرب بان الاعتماد على وسيط اميركي، نزيه في العلن ومنحاز في الحقيقة، من شأنه دفع اسرائيل نحو التخلي التدريجي عن الاراضي التي احتلتها ونحو القبول بتسوية تاريخية لنزاعها مع العرب. لكن انتخاب نتنياهو جعل الصمت العربي عن التناقض العضوي في الدور الاميركي امرا صعباً للغاية. فذاك الصمت كان مشروطا بمسلك اسرائيلي ثابت نحو التسوية. اما وقد تحررت اسرائيل من التزاماتها، واعادت النظر في قواعد التسوية المتفق عليها في مدريد، ولم يصدر عن واشنطن ما يؤكد رفضها القاطع لهذا الخروج الاسرائيلي على مبادئ التسوية، فقد اصبح التغاضي العربي عن التناقض الاساسي في الدور الاميركي شديد الصعوبة ان لم يكن مستحيلا. نحن اذن امام معادلة جديدة. فنتنياهو لا يجعل عملية التسوية تتعثر فحسب بل هو، من حيث يدري او لا يدري، يفجر التناقض الكامن في الموقف الاميركي، دافعا واشنطن الى نوع من الخيار المستحيل بين تحالف غير مشروط مع اسرائيل ووساطة دؤوبة بين العرب واسرائيل، وهو خيار تمكنت الديبلوماسية الاميركية خلال السنين الخمس المنصرمة من تجنبه بالاعتماد على رابين وبيريس. ويراهن عدد من الزعماء العرب على قرار اميركي بتأديب رئيس الوزراء الاسرائيلي وبجعله يدفع ثمن هذا الاحراج غير المسبوق للدولة الاكبر في العالم، فور انتهاء العملية الانتخابية الاميركية، على صورة ما حصل لشامير عند تحديه لجورج بوش ايام تهيئة مؤتمر مدريد وغداته. لكن هذا الرهان قد لا يكون في محله، وقد لا يكون كلينتون في حزم ايزنهاور ولا في جرأة بوش. ولان هذا التوقع مجرد رهان فان رفض اسرائيل الليكودية لاي دور خارجي غير الدور الاميركي سيدفع الاطراف العرب الى مزيد من الالحاح على راع مشارك لواشنطن، لعلم العرب بأن اي دور خارجي، اكان اوروبيا ام روسيا ام آسيويا، لا بد له من ان يكون اكثر التزاما من واشنطن لنزاهة الوساطة ولوسطية الموقف. واهم ما جاء على لسان شيراك في جولته المشرقية، ليس اذن سعيه الى دور ولا تعبيره عن طموح بل اشارته، في دمشق، الى الحاجة الماسة "لمزيد من التوازن" في ادارة عملية التسوية: هذا كلام على مستوى عال من الخطورة، لانه يعني انتقادا صريحا لانحياز الراعي الاميركي الذي ما زال يدعي "النزاهة"، وهو يتضمن التبرير الوحيد الذي يجعلنا نرتاح الى دور فرنسي واوروبي في عملية التسوية. فشرعية اي راع اخر للتسوية لا تقوم على هويته بل على اقراره بضرورة موازنة النفوذ الاميركي الملتبس باسهام اخر اقل التباسا. هذا ما كان على موسكو ان تقوم به بوصفها الراعي الاخر لعملية السلام، ولكنها اشاحت عن هذه المسؤولية او هي عجزت عن تحملها، فاصبح ابدالها بمن هو قادر وراغب على ملء الفراغ امرا مقبولا، ومنذ وصول "الليكود" الى السلطة، امرا ملحا. وان اشارت جولة شيراك الى امر فهو اننا امام "سويس" جديدة، بمعطيات معكوسة تماما.
فالتواطؤ مع اسرائيل اصبح اميركيا، ومحاولة اعادة التوازن امست اوروبية. واذا كان اليوم من "غي موليه" جديد، فهو ولا ريب في واشنطن، اما اذا كان من ايزنهاور فينبغي البحث عنه في اوروبا.